الفصل السادس

ضم الحجاز

أنبئ الرئيس المنتخب لمؤتمر الكويت بواسطة راعي المؤتمر بكل التفاصيل الدقيقة للتسوية التي عليه توجيه الأطراف المؤتمرة نحوها، ولجعل الأمر أكثر وضوحاً لكل الأطراف المشاركة بأن الحكومة البريطانية ليست لديها أية نية لمتابعة سياستها السابقة بدفع معونات لهم على أي حال لإحلال السلام فيما بينهم، وقد أُعلن أن كل المعونات ستتوقف بنهاية اليوم الحادي والثلاثين من مارس ١٩٢٤م: وقد تم دفع تلك المعونات جملة لتأكيد ذلك من الخزانة البريطانية. لكن، وكتمهيد لتأكيد الأوامر المسبقة المعدة سلفاً في لندن للرئيس كان على كل الضباط العليمين بتلك القضايا أن يقدموا آراءهم فيما يخص نتائج المؤتمر على الأسس المقترحة. وأظن أن غالبية الضباط الذين تمت استشارتهم عبروا عن موافقة عامة على الأوامر المقترحة، وقد أكدوها فيما بعد.

لكني قدمت مذكرة معارضة صارخة؛ فقد أشرت بالخصوص إلى أن الاقتراح بالإصرار على ابن سعود للتنازل عن مناطق الخرمة وتربة للشريف مقابل موافقة بريطانيا على احتلاله لمناطق وادي السرحان كافياً لفشل المؤتمر قبل بدايته، ولم يكن برأيي أن ابن سعود لن يوافق أبداً على التخلي عن المناطق موضوع الخلاف فقط، لكنه أيضاً في موقف يمكنه من احتلال "قريات الملح" متى ما شاء بموافقة أو دون موافقة الحكومة البريطانية. وبينت وجهة نظري تفصيلاً بالقول: إذا تم تمرير الاقتراح فإن المؤتمر سيفشل، وإذا ما فشل

فإن ابن سعود سيحشد قواته، دون توقع خسارة المعونة التي ستنقطع أصلاً وسيسير نحو الحجاز في غضون ستة أشهر من فشل المؤتمر.

ولحسن الحظ ربما وقع تحذيري في آذان لا تسمع. لعدة شهور كان المؤتمر يدور في دائرة مفرغة دون أدنى أمل في الوصول إلى اتفاق، وفي فبراير ١٩٢٤م، حدث أمر فتح الباب واسعاً أمام الخلاف، ليس فقط في الجزيرة العربية ولكن في كل العالم الإسلامي. حيث أعلن مصطفى كمال أتاتورك إلغاء الخلافة، تمسك الشريف حسين بشدة بعباءة الرسول: منازعاً ابن سعود، مما جعل الإسلام والعالم كله في تحدٍ لا يمكن تجاهله. في أحوال أخرى فإن عودة الخلافة إلى أحد أفراد بيت النبي ﷺ سيكون ربما أمراً ساراً في ديار الإسلام، لكن حسيناً أثار عداء معظم الدول الإسلامية بخصومته ومعاملته المستبدة للحجيج، ولم يتمكن أبناؤه من جمع الدعم لادعاءاته إلا في شرقي الأردن وسوريا والعراق. على كل حال، وصل الخليفة الجديد المقترح إلى عمان في زيارة رسمية إلى شرقي الأردن في يناير وامتدت إقامته حتى منتصف مارس، وخلالها أوضح أنه يعد عبدالله وفيصل ولاة عهد له أكثر من اعتباره لهم ملوكاً مستقلين. وفيما يخص ابن سعود، فإنه ينظر إليه نظرة أبوية كريمة، مستبعداً قضية النزاع الحدودي بينهم، وعلّق في محادثة معي قائلاً: "ستكون وكيلي مطلق الصلاحية لحل المسألة مع صديقك". حتماً فقد كان في روح عالية بسبب المنزلة المكتشفة حديثاً، وكان مقترحه الذي أوصله رسمياً إليّ بواسطة الأمير عبدالله في السادس من مارس، قد تم إعلانه رسمياً في ملتقى الجمعة في كاتدرائية عمان في الرابع عشر من ذلك الشهر. وقد تم مثل ذلك في الجامع الكبير في دمشق قبل أسبوع من ذلك التاريخ.

إظهار حسن النوايا وسلامة الطوية هذا لم ينعكس برغم ذلك في محادثات مندوبه في الكويت، حيث جرت المحادثات دون التوصل إلى نتيجة، حتى قررت الحكومة البريطانية في بداية أبريل الدعوة لإنهاء المؤتمر. وأدت حرارة الصيف إلى فرض الهدنة التقليدية للنشاطات الحربية في الصحراء. كان ذلك هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.

وفي أغسطس وصلت غزوة أخرى من غزوات الأخوان لخط سكة حديد زيزة، إلى الجنوب قليلاً من عمان، وقد ذُبح سكان قرية أم العماد قبل أن يُطرد الغزاة خارج شرقي الأردن بواسطة الطائرات والعربات المدرعة البريطانية كما في ١٩٢٢م. وحوالي ذات الزمان ظهر قسم كبير من جماعة الإخوان بقيادة المهيب فيصل الدويش على الحدود مع العراق، ولكن سرعان ما انسحب بعد لفت انتباه السلطات. وبعد ذلك، وفي مفاجأة مدمرة، حلت الضربة الحقيقية في الثالث من سبتمبر، حيث ظهرت قوة كبيرة من الوهابيين تحت قيادة سلطان بن بجاد على حدود الطائف، العاصمة الصيفية للحجاز. تراجع الأمير علي النجل الأكبر للملك سريعاً بالقوات التي تحت إمرته نحو حافة المنحدر الكبير على طريق مكة، متخلياً عن الطائف لتلاقي مصيرها. استسلمت المدينة دون مقاومة، بينما فر سكانها بحثاً عن النجاة نحو مكة، حيث طاردهم الوهابيون. ولم يتجاوز العدد الإجمالي للقتلى في الطائف وضواحيها الـ ٣٠٠ قتيل، ولكن سرعان ما وصلت تقديرات مبالغ فيها عن ضحايا المجزرة إلى الإعلام الأوروبي. وفي غضون ذلك، لم يلاق سلطان بن بجاد صعوبة تذكر في هزيمة علي وقواته في معركة الهدا حيث كانوا في طريقهم للفرار إلى مكة وجدة مع اللاجئين من الطائف.

وصلت أنباء هذه الأحداث سريعاً إلى ابن سعود في الرياض. وكان مندهشاً وحذراً لهذا النجاح السريع والسهل لقوة الاستطلاع هذه على دفاعات الحجاز، وصار اهتمامه الرئيس الآن منصب نحو تجنب معركة في مكة، ولتفادي زيادة حماسة قادته المتعصبين وقواته المتعصبة، وزعت أوامر عاجلة إلى الجبهة مانعة أي محاولة لاحتلال مكة بالقوة ومناشدة كل الوهابيين التقيد بأوامره حتى يصل ابن سعود بنفسه إلى مسرح الأحداث. وفي الحقيقة تجاوز علي مكة مسبقاً في طريق فراره إلى جدة، وأمر الملك حسين على مضض بإخلاء العاصمة لتجنب فضيحة القتال في شوارعها، وبالتالي كان لسلطان بن بجاد شرف دخول مكة دون مقاومة، ولم يضايق سكانها، رغم هدم بعض القباب في مقبرة المعلاة وبعض النُصب الوثنية، وتم نهب بعض ممتلكات الشريف.

وفي جدة، استجاب الملك حسين لضغط الرأي العام، الذي نادى بتنازله عن الملك لصالح ابنه علي، واستقل سفينة ومعه عائلته وثروته متجهاً نحو العقبة، حيث كان قد رسا قبل ذلك بسبعة أشهر فقط، حيث تلقى صيحات التهليل والابتهاج في شرقي الأردن على تسلمه الخلافة.

في غضون ذلك واجه علي مسألة صعبة تفوق قدراته، وتتمثل في تنظيم خطوط للدفاع عن جدة في مواجهة الهجوم الوهابي المتوقع، رغم أن ابن سعود، محتسباً لأي حدث دولي ينجم عن قتل أو أذية أي أوروبي في الهجوم على المدينة، منع سلطان بن بجاد منعاً باتاً من التقدم إلى ما بعد مكة حتى وصوله شخصياً. ولم يحصل ذلك حتى ديسمبر، حين وصلتُ جدة

بترتيبات مع وكيل الملك علي في لندن برؤية مبهمة لتقديم أي مساعدة ممكنة لجعل الأطراف المتصارعة تتحاور للوصول إلى اتفاق يرضي جميع الأطراف. ومن ضمن آخرين قدموا إلى جدة حوالي ذلك الزمان، ولذات الغرض، وصل أمين الريحاني والسيد طالب، ولكن كان واضحاً منذ البداية أن الموقف العسكري لعلي كان ميؤوساً منه، وقد نصحته صراحة أن أفضل سبيل له هو لقاء ابن سعود في مكة حين قدومه وطلب عفوه وصفحه. ولكن نصحه مستشاروه العسكريون بالسير قدماً في طريق القتال مستندين إلى أن تدريبهم العسكري المتفوق ومهارتهم سيدحران الوهابيين إلى بواديهم في خلال أشهر معدودة حالما يصل المتطوعون المتوقعون من سوريا وشرقي الأردن ويتم تدريبهم وتسليحهم لتلك المهمة. كما تم إرسال طائرتين لإشعال المظاهرات في مكة في يوم وصول ابن سعود، ورد الأخير بطلبه استسلام الحجاز استسلاماً غير مشروط. ولسوء الحظ، جعل انتشار الدوسنتاريا من الضروري مغادرتي جدة إلى عدن في الثاني من يناير، وبالتالي فقدت فرصة أن أكون حاضراً افتتاح قصف الوهابيين للمدينة في اليوم التالي. ورفع الحصار عن جدة بسبب الهدنة الصيفية المعتادة، بينما استعد الطرفان لاستئناف المعارك النشطة في أواخر الخريف أو الشتاء.

ولم أتمكن من العودة إلى جدة إلا في أكتوبر لأشهد المراحل الأخيرة لانهيار المملكة الهاشمية في الحجاز. ولكن إنجليزي آخر، هو الدون ديتير، قضى كل صيف وخريف ١٩٢٥م كحاج في مكة، وأصدر في النهاية وصفاً رائعاً لتجاربه خلال السنة الأولى لابن سعود حاكماً على الجزء الأكبر من

الحجاز. وقدمه في صورة أمير عربي طويل القامة، متين البنيان، يرتدي معطفاً أصفر، وجلباباً من الكتان الأبيض وغترة ملونة بالأحمر والأبيض تحت عقال من الصوف الأسود، يجلس حافي القدمين على الأرض وسط أتباعه، وينهض لاستقبال كل دفعة جديدة من زائريه الذين يلجون إلى خيمته الكبيرة لتقديم التهاني بمناسبة انتهاء مناسك الحج، الذي يحتفل به لأول مرة في ظل حكمه. وتأخذ تلك المشاهد المرء إلى الماضي بأحاسيس الحنين إلى الأيام الخوالي الجميلة قبل دخول الأفكار المستحدثة والتعقيدات فيما يخص الإجراءات الاحتفالية في القصور العربية، ووسط تلك الأحاسيس كان يجب الاعتراف بكل الصدق ببطل تلك المناسبة، حيث كان وحده محط المهابة والاحتفال في زمن بساطة الماضي، بينما تبدو بعض مناظر الأبهة والخيلاء حول قصره بما في ذلك زخارف الملك. وحتى في ذلك الزمان كتب ريتير ملاحظاته اللاذعة التي تقول: "لم يكن لطموحه الشخصي حدود، لكنه كان منضبطاً بكثير من التعقل والحذر، كان قوياً لا يلين في ساعات المقاومة، ولكن في ساعة النصر كان من أكثر العرب إنسانية في التاريخ. وفيما يخص نظام حكمه.. كان يحافظ على الشورى حتى وسط أقاربه، وبالتأكيد كان حكمه مطلقاً".

الرأفة والتعقل والحذر ظلت هي الخصائص المميزة لشخصية ابن سعود حتى بعد نصف قرن من الحكم المطلق، وفيما يتعلق بالمشورة فقد حدث قبل عدة أشهر مضت أن سمعته يقول في تجمع عام جملة تستحق أن تتذكر كشعار لحكمه الطويل: " اجعلوا الشورى بينكم، إذا اتفقتم فذلك خير وحسن، لكن إذا لم تتفقوا فحينها ضعوا ثقتكم في الله، وافعلوا ما ترونه الأفضل ".

خلال أول رمضان له في المدينة المقدسة، وما بعد ذلك، حجه الأول، حيث بدأت أفواج من الحجيج من وراء البحار تصل في أوائل الصيف إلى مختلف الموانى الواقعة تحت إمرة الوهابيين، كان ذهن ابن سعود مشغولاً بالترتيبات العسكرية لحملة الخريف، والتي تهدف لتجسيد ضم جدة والمدينة، وتنظيف ما بقي من الحجاز.

في غضون ذلك اتخذ البريطانيون، بعد إدراكهم أن ظهور الملك السابق حسين في العقبة سيؤدي حتماً إلى جلب الجيش الوهابي إلى حدود شرقي الأردن وفلسطين، خطوات لنقل الملك اللاجئ إلى قبرص ولاحتلال العقبة ذاتها بفرقة من العربات المدرعة، ولابن سعود على هذه الخطوة تعليقات لاذعة قالها للدون ريتير، ومن خلالها ظهر خلاف أنجلو - عربي سيتم الإشارة إليه لاحقاً.

عند عودتي إلى جدة، وبالمصادفة في رفقة بعثة فارسية مختصة بالتقصي والكتابة عن الدمار الذي لحق بالقباب والمباني الأخرى الذي يُزعم أن الوهابيين قاموا به خلال فترة الاعتداءات، كان بمقدوري إرسال رسالة إلى ابن سعود عبر واحد من أعضاء البعثة؛ ولذلك تلقيت دعوة لمقابلة السلطان خارج مكة عبر طريق ميناء رابغ، حينها كانت في قبضة الوهابيين القوية. تمت المقابلة في الشميسي على حافة المنطقة المقدسة، بعد الاستئناف المتقطع للاعتداءات، قامت طائرة بإلقاء قنبلة على رابغ بينما كنت هناك، وأخرى وعلى سبيل الاستطلاع عبرت فوق الخيمة التي كنا وابن سعود نناقش فيها الأوضاع. كان منتظراً وصول ابنه، فيصل، مع جيشه الرئيس من نجد، قبل توجهه نحو جدة،

وكان بإمكاني التأكيد على أنه لا توجد أي مقاومة من قبل سكان جدة. إذ كان معظم سكان جدة يعانون أصلاً من الجوع والمرض، ولا يرغبون إلا في نهاية سريعة لتلك الحرب. عدت إلى رابغ لأتفقد جيش الأمير محمد النجل الثالث للملك، الذي كان في طريقه إلى المدينة، حيث كان الإخوان بقيادة فيصل الدويش يروعون المدافعين عن المدينة مما جعلهم يقترحون الاستسلام في نهاية الأمر بشرط ألا يدخل الإخوان المدينة؛ ولهذا السبب فوض ابن سعود ابنه محمداً شخصياً لضمان المعاملة الجيدة لهذه المدينة المقدسة وأهلها. وبعد وصول محمد بفترة قصيرة استسلمت المدينة في الخامس من ديسمبر عام ١٩٢٥م. وفي تلك الأثناء كنت قد غادرت رابغ بالسنبوك إلى بورتسودان، حيث بقيت حتى دخول جدة، والذي حدث دون كثير قتال بعد مغادرة الملك علي وحاشيته في الثالث والعشرين من ديسمبر بترتيبات تمت في اليوم الذي سبق عبر المكاتب الجيدة للوكيل السياسي البريطاني.

ولم يطل الأمر بابن سعود ليوصل إلى أهل الحجاز رسالته عبر تنفيذ أحكام الشريعة على حالة أو حالتين كاختبار على أنه يريد أن يكون حقيقة سيداً في بيته، وأن ليس لأي مواطن مخلص ما يخشاه من ابن سعود شخصياً أو من الوهابيين الرهيبين. وكان هنالك تحدٍ للنظام الجديد، تمثل في تمرد قامت به قبيلة حرب في المنطقة الجبلية حول عسفان وقد ردته السلطة سريعاً محدثة آثاراً مأساوية وسط المتمردين. وتمرد قسم آخر من ذات الفصيلة في منطقة إلى الجنوب من مكة، لكنهم سرعان ما عرفوا من هو السيد. وفي جدة ذاتها، أظهر السلطان وجهاً آخر لشخصيته، قد يدهش كثير من الناس الذين تعودوا

على ردود الفعل العنيفة، إذ كان في انتظاره وفد من تجار التبغ المحليين جاؤوه للاحتجاج على الحظر الجديد الذي فرض على بيع التبغ، وقد لخصوا احتجاجهم بالتنبيه إلى الخسارة الكبيرة التي سيكونون أول ضحاياها إذا ما طُبق هذا الأمر بشكل فعال وفوري؛ لأن قيمة مخزون التبغ في المدينة، كما أوضحوا، تقرب من ١٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، وكل ما طالبوا به هو تأجيله حتى يتمكنوا من التخلص مما عندهم من مخزون. كان ابن سعود في الحقيقة مندهشاً من إظهار هذا الإثم من أهل جدة، ولكنه لم يكن ليكون غير منصف للمتعهدين المعترفين على أنفسهم بترويج ذلك العشب الممنوع. تم إعطاؤهم المهلة التي يرغبون بشرط حظر العرض الفعلي للتبغ والسجائر أمام أعين العامة، وقد مددت المهلة نفسها دون إثارة علنية للموضوع مرة أخرى، لدرجة أن المستورد من التبغ كان يدفع مقابله جمارك للحكومة، حتى اختفى حظر التدخين من قائمة المحرمات الوهابية.

ولأول مرة يرفرف العلم الوهابي من ساريات المباني الحكومية في جدة آخذاً مكانه وسط أعلام الأمم. وكان المجتمع الخارجي يتوقع ويتنبأ بعهد من ردود الأفعال، إن لم يكن الرعب، ولكن ومنذ البداية كان كل شيء يشير بأن المخاوف كانت بعيدة عن الواقع. وسريعاً ما استقبلت الشركات الأجنبية العاملة في جدة طلبات الحصول على السيارات والماكينات، واختراعات الشيطان الأخرى. وسرعان ما اتضح أن الحكومة الجديدة ترغب في فعل كل شيء من أجل التأمين على سلامة وراحة الحجيج، بما في ذلك تشجيع السفر بالسيارات، رغم احتجاجات بعض المتزمتين من ملاك الإبل البدويين على

حرمانهم من مصدر رزقهم الأساسي. وقد أثبت المستقبل أن احتجاجاتهم لم يكن لها أساس من الصحة، ولكن ذلك أوضح جلياً أن راحة ورفاه زوار بيت الله ورسوله في أراضي الإسلام المقدسة يكون له الأولوية على كل الاعتبارات الأخرى.

كانت أول ردود أفعال الحكومة البريطانية تجاه مسؤولياتها الجديدة تلقى بانطباع إيجابي في النفس، وتزيح المخاوف التي سبقت انتصاراتها. لكن السقوط الكامل للنظام غير المحبوب للملك حسين، آثار التكهنات المتزايدة في معظم البلدان الإسلامية، وبالأخص الهند ومصر، حول إمكانية ضمان بعض الممثلين لسلطة إسلامية لضمان إدارة ملائمة للأراضي المقدسة. وكان من الطبيعي أن يكون ذلك كافياً لهذه البلدان الإسلامية، التي ربيت، رغماً عنها، بمثاليات وشعارات الديمقراطية الأوربية، رغم إن لابن سعود الكثير الذي يخشاه من تدخل مباشر أو غير مباشر في مصالح الحجيج. وكان قد أوضح اهتمامه الخاص براحة الحجيج بما تتيحه إمكانات البلاد المالية والاقتصادية. ولكن كان اعتباره الأسمى في هذا الوقت الحاجة لضمان الأمن والطمأنينة المطلقين، وقد أدرك تماماً أن عليه حمل الهم لوحده.

كانت ردة فعله متميزة، فقد دعا ممثلين من كل بلاد المسلمين، الذين أزعجوه بكيف يمكن أن تُدار الحجاز ليقابلوه في مؤتمر خلال الصيف التالي (١٩٢٦م) قبيل موسم الحج. وخلال ذلك، وليُرى العالم أنه لا يرغب في التهرب من تحمل مسؤوليته، فقد رتب بالتشاور مع كبار سكان مكة والمدينة وجدة وزعماء القبائل أن ينادى به كملك للحجاز في تعاقب طبيعي للأسرة

الهاشمية السابقة، وسرعان ما أقيم احتفال ضخم من قبل أتباعه الجدد في المسجد الحرام في مكة بعد صلاة الجمعة في الثامن من يناير ١٩٢٦م، بعد أكثر من أسبوعين من إتمام احتلاله بعد استسلام جدة. وكان إلدون روتر سعيد الحظ ليكون شاهد عيان لهذه المناسبة الضخمة، والذي يتوافق فيها اليوبيل الفضي مع اليوبيل الذهبي بالسنة الهجرية لعهد الملك في الجزيرة العربية.